



نحتاج لجرين بيس فلسطيني

هكذا يطلق الاحتلال النار على بيئة فلسطين...

عبد الباسط خلف

الصبي أحمد في المدرسة نتعلم القليل عن البيئة لكننا في الواقع لا نجدها .

١٨ مولد للكهرباء لـ ٧٠٠ إنسان

قريبا من المكان تستلقي الخلجان البعيدة عن جنين (٢٧ كم)، وكانها تحيا قبل ٢٧ سنة، ويكتشف المرء مفارقة من العيار الثقيل . يقول صبري محمود خطيب: في قريتنا التي يسكنها زهاء ٧٠٠ إنسان، لا تتوافر شبكة للكهرباء القطرية، لكنها تحتضن كارثة خفية، فجراء إشكالات ما، يحوي التجمع الصغير ١٨ مولدا كهربائيا، تتشارك كل مجموعة من الأسر في شبكة عائلية للكهرباء، تعمل نحو خمس ساعات لقتل الظلمة، لكنها وفق وصف سامر (طالب الزراعة في الجامعة المفتوحة)، تقتل البيئة بما تبثه من سموم وملوثات وضوضاء، وتعكر الصفو وتمزقه.

يعود خطيب للحديث عن حال قريته التي لا تسر صديقا: توفيت قبل شهرين تقريبا جراء إصابتها بالسرطان، ولا زال يتذكر جيدا وفيات مماثلة عاشتها بلدات مجاورة صغيرة العدد وضعيفة القدرة على مواجهة المرض أو الموت وحصدت أرواح خمس نساء.

يضيف: حاولنا الاشتراك أو الوحدة كهربائيا، عبر مولد مركزي، لكن مجلس القرية كان له رأي آخر، وقال إن هناك مساعدة فرنسية ستصلهم.

جمع خطيب شخصا ٤٢ ألف شيقل، وظلت مع لجنة محلية، لكنها عادت إلى جيوب السكان بعد سنة ونصف، وعاد معها ارتفاع نسب الإصابة بالمرض.

كسارتا موت

يرى أحمد قبيها عضو مجلس طورة الغربية المحلي أن قريته أيضا وتجمعات يعبد المجاورة تعاني مشكلة مضاعفة من طراز مغاير، إذ كانت كسارة مجاورة أقامها المحتلون قبل أن تصبح معسكرا للتدريب على القتل، تعبت بنهار المواطنين وصحتهم وبيئتهم، وأضحى السرطان سببا لموت الكثيرين.

يمطرنها قبيها بأحزان لا زال يتذكرها، ففي العام ٢٠٠١ وحده سجلت تسع حالات وفاة بالداء العضال، بفعل الغبار المنبعث من الكسارة، عدا عن الكربون الأسود المنبعث من المفاحم أو المشاحر، التي وفق وصف سامر إبراهيم طالب الثانوية العامة، تبيض جيوب السكان وتسود حياتهم وبيئتهم الخضراء .

يضيف: تتسبب مجاري مستعمرة ريحان بمضاعفة معاناة الأهالي في أم دار والخلجان وظهر العبد، عدا عن الكسارة النقالة التي أسسها المحتلون لشق طرق التفاقية وأخرى بمحيط الجدار، لتطارد حياة المواطنين، مثلما تسهم أعمال تمشيط محيط الجدار من جانب قوات الاحتلال، صباح كل يوم، بذريعة فحص جدار الفصل العنصري، والكشف عن محاولات التسلسل عبره، لداخل الفاصل الأخضر، تسهم في زيادة التلوث.

يكتف قبيها أحزانها، فحتى الطبيعة في منطقتها لم تعد كذلك، بفعل مشهد انتهاك آخر، يتجسد في النفايات العشوائية التي تلقى في غير مكان، وتعالج بفضوى مطبقة، فهي تحرق وتترك لتسرق عافية السكان .

نفايات على الطريق

يروى غسان عمارنة: في قريتنا تلقى النفايات في كل زاوية، وهو الحال ذاته الذي يعيشه أهالي الخلجان، فهم يرمون النفايات في أكثر من تجمع، وفق وصفي خطيب، الذي رهن نفسه لحرق أكوام النفايات كلما تكدست على جنبات الطرقات، دون أي حساب بيئي ..

يشير مصطفى قبيها، الطالب الجامعي لأوضاع قريته أم دار، ذات الـ ٧٠٠ نسمة، التي أسر الجدار الأعلى، مساحات من أرضها، ما اضطر الأهالي تقريبا لمكب النفايات ليصبح على تخومها، ولا زالت القرية شاهدة على عهد المشاحر الذي دمر بيئتها، قبل أن ينقلها أصحابها وراء الجدار، داخل قرية برطعة الشرقية.

ينقل مشهد التحول الذي طرأ على أشجار الزيتون، إذ عانت الأميرين من الانتهاكات الخطيرة التي عصفت بها، ودفعت المواطنين من خارج محيط بلدة يعبد للزحف عن شراء زيتها، خوفا من مطاردة السرطان الساخنة لأجسادهم التي تعاني آثار الفقر وضيق ذات اليد.

يتحدث هو الآخر عن الوعود السرايبية في شبكة كهرباء قطرية بدعم فرنسي، ذهبت أدراج الرياح، لتعود أثمان إنارة المنازل على حساب الأوكسجين الذي يستنشقونه.

في قرية ظهر العبد، طبقا لخالد عمارنه، يوجد مولد كهرباء وحيد لكنه يدرك حجم الضوضاء والتلوث الذي يحدثه، لكن الفقر هو الآخر يتكاثف ضد تحقيق رخاء بيئي، إذ كان ٩٨٪ من السكان يعتنشون على العمل وراء الفاصل الأخضر، لكن هؤلاء تحولوا المناصرة «جيش البطالة» ولا يستطيعون توفير أثمان مولد كهربائي يكفلهم آلاف الدولارات. يبدي معظم السكان استعدادا عاليا للانخراط في برامج للطاقة البديلة، كالألواح الشمسية، لكنهم يجمعون على أن الجهات المانحة تضل طريقها، ولا تتذكرهم.

خنازير أيضا

وقع أهالي تجمعات غرب يعبد بين المطرقة والسندان، وفق روح كلمات أحمد قبيها ونصوصها، فحتى أراضيهم لا تزرع إلا بالتغ أو السموم كما يسميها البعض، ويتذرع السكان بأن إقدامهم على خطوة كهذه خرجت إلى النور حينما أخذت قطعان الخنازير المنطلقة من مستعمرات شاكيد وحنانيت غير اللطيفة كما تشير ترجمتها العبرية، تعيث فسادا في حقول الحنطة والزيتون.

ووفق نكرياته، فإن شابا راح ضحية الخنازير، حينما عاد من مهمة دس السم للقطعان التي كانت تدمر محصوله، لكنه مات متأثرا من الكيماويات الخطرة.

يرى بعض الأهالي كمحمد زيد أن التبغ اقتصادي، وتدميري في الوقت نفسه، فهو الذي يحقق الأموال، لكنه يصبح سما يسبب السرطان وأمراض الرئة، ويلوث الأراضي التي تستضيفه مكرهة. ويقترح: منع زراعة هذا المحصول، لأنه كالمخدرات تماما، ويشترك في قتل البيئة والإنسان عندما يتحول لعب رخامية من الخارج وسمية من الداخل.

يتحدث الناشط في جمعية التنمية الزراعية محمد جرادات، الذي دأب على متابعة ملف جدار الفصل العنصري، عن انتهاك آخر تعيشه منطقتة يعبد، إذ عمدت المصانع الإسرائيلية التي لم يسمح لها بمزاولة نشاطها داخل المدن وراء الفاصل الأخضر، إلى الانتقال إلى محيط القرى الفلسطينية وفي المستعمرات، ففي شاكيد أقيم مصنعا لمستلزمات الإنتاج الخاص بالحدادة واللحام، وكان نصيب قلقيلية صناعات بلاستيكية خطيرة نقلت من منطقة «يوكنعام» المقامة على أراضي الروحة قرب مدينة أم الفحم. وكان البيئة عندنا شيء من الترف، وعندهم أولوية وطنية لأنهم بشر من نوع خاص!

يضيف آخرون: حتى يعبد الشاسعة وذات الـ ١٧ ألف مواطن، تعتمد على الكهرباء الصادرة من مولدات تضيف للأجواء المزيد من السموم، وتتحد مع المفاحم على طعن البيئة في خاصرتها.

«وسع المحتلون دائرة عدوانهم على الفلسطينيين منذ اندلاع الانتفاضة، فقتلوا البشر، ودمروا البيوت، واقتلعوا الشجر، وجرفوا الأراضي الزراعية...» بهذا التكثيف شرعت أحلام (طالبة السنة الأولى في علم الزراعة) بوصف الحال الذي وصل إليه الفلسطينيون.

تحتفظ أحلام بما نشر من أرقام مرعبة لتقرير جمعية القانون، رأى النور أوائل كانون الأول الحالي، إذ قتلت إسرائيل ٢٦٢٩ فلسطينياً بينهم ٥٧١ طفلا و١٦٧ امرأة واعتقلت ٦١٤١ مواطنا، فيما جرفت ١٩٦٧٩ دونما زراعيًا، واقتلعت ٤٠٦٦٥ شجرة مثمرة، ودمرت ٤٧٧ بديئة و أحرقت ٤٣٦ دونما زراعيًا و ٢٥٧ شجرة، وسرقت ٥٠٤٠ دونما عبر مصادرتها.

حرب ظالمة

و يوثق محمد جرادات (مسؤول ملف الجدار في جمعية التنمية الزراعية) مسلسل الاعتداءات الإسرائيلية ضد بيئة فلسطين، بعد أن أقدمت على بناء جدار رها العنصري في محافظات الوطن.

في جنين لوحدها بإمكان المرء تسجيل العديد من الانتهاكات التي أصابت البيئة في مقتل، ففي منطقة زبوبا (١٣ كم شمال جنين) تعرضت أنفاق حيوان القنفذ الصخري للتدمير، وبات يتهدده خطر الانقراض، مثلما نال جدار الموت من قطعان الغزلان في منطقة غرب جنين .

أحمد إبراهيم، الشاب الثلاثيني الشغوف بالبيئة والطبيعة، لا زال يذكر قطعان الغزلان التي حوصرت وعزلت وانقرضت، فما أن يتجول في محيط بلده يعبد، حتى كانت عشرات الغزلان تسرح وتمرح أمام عينيه، أم اليوم فوق محمد، فقد انتهى كل شيء .

يقول أحمد الزغل رئيس اتحاد المزارعين في زبوبا: حتى الكلاب تأثرت من إنشاء الجدار، إذ أصبحت تتجمع بأعداد كبيرة على جانبي الأسلاك الشائكة، وكأنها تنشد العيور والتواصل على طريقها.

الغابة السليبية

يواصل جرادات حديثه: في محمية العمرة أو الغابة الطبيعية الفلسطينية، قطعوا الأشجار وصادروا مساحات شاسعة من أكبر تجمع أخضر كان المتنفس الأوحده لمحافظة جنين، والذي يمتد على نطاق ١٣ ألف دونم.

في قرية المطله، ١٥ كم شرق جنين، جلس يوسف بزور - معمر القرية الذي تجاوز عمره الـ ١٢٠ عاما- ويرفقه مجموعة من أحفاده، ليشاهد بمرارة ما أقدم المحتلون على صنعه في قريته الصغيرة والواعدة، ٢٧٠ إنسانا يتحدرون من الجد منزل، مؤسس القرية قبل نحو ٧٠ عاما، سرق شقاء عمرهم في لحظة، وباتوا يشاهدون -قلوبهم تتقطع- سرقة أشجار الخروب المعمرة من أراضيهم، واقتلاع النباتات البرية كالإبصال مختلفة الأنواع، وحتى التربة السطحية الحمراء الخصبة باتت هي الأخرى تسرق وتنقل لما وراء الفاصل الأخضر.

يكمل جرادات قص حكاية ألم أخرى، ففي محيط سيلة الحارثية واليامون شمال جنين، سرقوا التربة الخصبة من إمتدادات مرج ابن عامر وهي من أخصب بقاع العالم العربي، لغناها بالعناصر الأساسية وقدرتها العالية على الاحتفاظ بالماء، على ذمة المراجع الجغرافية التي نقلت إلينا في مناهج الجغرافيا.

ينظر محمد عبيدي رئيس تجمع منتجي اللوز في قرية زبوبا، بعين على جدار الفصل الذي التف حول عنقه وسكان قريته زبوبا، وبالآخرى يتفاعل بحسرة مع قناة المياه العادمة الذي باتت تشطر القرية لنصفين، بطول كيلومترين، قادمة من معسكر سالم الإحتلالي المقام على أراضي البلدة، لتنقل إليهم الروائح النتنة والحشرات الضارة وتلوث ينابيع مياههم. يقول: نعيش معاناة تتوزع على الحواجز والجدران العازلة والأسلاك الشائكة والمجاري النتنة التي تغرقنا وتشاركنا في الهواء والماء وكل تفاصيل حياتنا.

يشير عبيدي لإحصاءات تناولت الرعب الخفي لسر حياة الفلسطينيين الضائعين، إذ أصبح ثلثا مصادر مياه الضفة الغربية الجوفية خلف الجدار.

ننهي ملفنا الموجه، ونتأثر بحديث أطفال زبوبا، ونسجل ما قالته لنا أحلام: نحتاج «لجرين بيس» (سلام أخضر) فلسطيني لرفع الظلم عن بيئتنا المعذبة.

وتمثل المفارقة أمانا: الإحتلال يغتال بيئتنا، ونحن ندمر بأنفسنا أراضينا الزراعية كما يحدث في جريمة اغتصاب مساحات مرج ابن عامر، الذي كانت مسحته ٣٦٠ كم، لكن غابات الأسمت والعبث وسوء التخطيط وجدار الفصل العنصري، وضعت حدا لأحلامه بالبقاء طليقا.

«انتهاكات متعددة الأطراف»

جنين : بيئة سوداء وهواء ملوث وكسارات وسموم وأشياء أخرى . . .

قادتنا قلوبنا وأقدامنا إلى الشطر الغربي من ريف جنين، الوجهة التي أصبحت عنوان المعاناة بفعل إنشاء جدار الفصل العنصري أو جدار الموت الذي يحول الحياة إلى جحيم، ويعد مقدمة لتهدجهم «الطوعي» ... كل شيء في التجمعات الصغيرة كان مشدودا باتجاه الجدار وإفرازاته، هناك في زبده البعيدة بضع وعشرون كيلومترا عن جنين، والتي اختيرت كنقطة انطلاق لمسيرة احتجاج باتجاه برطعة الشرقية، الأسيرة حيث سجن كبير ببوابة وأسلاك شائكة، يحيا نحو ألف وخمسمائة إنسان وكانهم في دنيا مختلفة، الشوارع محطمة ومحتلة بالحفر، فيما شبكة الكهرباء مفقودة، كما المياه العذبة، ومراكز ملائكة الرحمة، والنفايات تتناثر باتجاهات مختلفة...

ينسج غسان عمارنه العضو في لجان التكافل المحلي رداء حزن لحال قريته وعلاقتها مع البيئة: المشاحر من جهة كانت تنهش بجسدها الغض، والكهرباء تبعث من مولدات ترسل بدورها دخانا يلوث البيئة ويحد من حرية تنسم الهواء، والنفايات تلقى في غير جهة

داخل القرية الصغيرة، يلجا السكان لتحقيق نوع من اكتفاء ذاتي لا يعترف بصداقة «الأوزون»، ويخرقون البيئة كما يحلو لهم، فالخيارات أمامهم معدومة إلى غائبة، وتطبيق الوعي البيئي بحذاقيره يعنى التخلي عن مهن يعتاشون عليها، وهنا تنتشر كما في سائر المنطقة زراعات التبغ، الذي ينقل ليتحول إلى سموم معلبة ... يقول